

فصل في الإيمان بالقضاء والقدر

يقول بعد ذلك: والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره وكل ذلك قد قدره الله ربنا. الإيمان بالقدر يدخل فيه علم الله، وهو أن نؤمن بأن الله عالم بكل شئ، وأنه كتب كل ما سوف يكون، علم كل ما يحدث وكتبه كله، كل ما يحدث فإنه مكتوب، ثم هذا العلم وهذه الكتابة أنكرها القدريات الأولون وقالوا: إن الله لا يعلم الأشياء حتى تحدث؛ فلا يعلم ما في غد، ولا يعلم هل هذا الإنسان سعيد؟ أم شقي؟ ولا يعلم بماذا يختتم له به؟ ولم يكتب ذلك، إنما الأمر أتف. هؤلاء غلاة القدريات يقولون فيهم الشافعي رحمه الله: "ناظرورهم بالعلم، فإن أقرروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا". يعني سلوكهم، أنقرون بأن الله تعالى عالم؟ فإذا اعترفوا بذلك قيل لهم: ما الفرق بين علم الماضي والسابق، والآتي؟ فإذاً يخصمون وإن جدوا علم الله كفروا. الطائفة الثانية: الذين ينكرون قدرة الله فيقولون: إن الله ليس على كل شئ قادر، هؤلاء أيضاً يخصمون بقدرة الله يقول الإمام أحمد القدر قدرة الله يعني: كل ما في الوجود فهو حادث بقدرة تعالى، فنؤمن بالقدر خيره وشره: { ما أصاك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن ليصيبك } وقبل ذلك أنت مأمور بأن تحافظ، وأن تحترز عن الآفات ونحوها، وإذا أصاك شيئاً فلا تقل لو أني، لو أني، لو أني فعلت؛ قادر الله وما شاء فعل هذا قدر الله وما شاء فعل، ويقول الله تعالى: { ما أصاك من مُصيبةٍ في الأرضِ وَلَا في أَفْسِكُمْ إِلَّا في كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ تَبَرَّأُهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِسِيرٍ } . فالقدر خيره وشره وكله من الله سبحانه وتعالى، كل ذلك قد قدره الله ربنا؛ قال تعالى: { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } أي: قدر لكل إنسان أجلاً، وقدر له عملاً، وأمره وجعله ميسراً لما خلق له، فمقادير الأمور بيده، بيده مقادير الأمور فهو الذي يقدر على هذا الإنسان ما يقدرها من الحوادث ونحوها، مقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضايه، مصدر كل الحوادث عن قضايه وقدره، علم كل شئ قبل كونه؛ يعلم ما سوف يوجد ويعلم من سوف يولد، ويعلم ما سيعملون ويعلم أعمالهم قبل أن يعملوها، علم كل شئ قبل وجوده؛ فجري على قدره، جرى كل إلى ما قدره عليه. لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبقه علمه به، كل كلمة فإن الله تعالى قد علمها، وكل فعل وكل حركة؛ فإن الله تعالى قد علمها، سبق علمه به؛ قال الله تعالى: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ حَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْحَمِيرُ } كيف لا يعلم خلقه؟ أليسوا خلقه؟ كيف لا يعلم أحوالهم، وأعمالهم، ونياتهم وضمائركم؟ عليم بذلك. يضليل من يشاء فيخذله بعده، الذين أضلهم علم الله أنهم ليسوا أهلاً للهداية فحررهم الهدایة ولم يظلمهم: { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } ولكن أضلهم بمعنى أنه خلى بينهم وبين أنفسهم فأطاعوا أنفسهم وأطاعوا أعداءهم فضلوا عن سوء السبيل، وذلك بعلم الله تعالى وبتقديره، ولا يظلمهم، وبهدي من يشاء فيوفقه بفضلهم؛ الذين هداهم وأقبل بقلوبهم على طاعته لا شك أنهم خلق من خلقه، وأنه تفضل عليهم، وأقبل بقلوبهم على طاعته، وقدف في قلوبهم الرحمة وهداهم وسددهم، وذلك فضل منه؛ فانت أيها المهتدى قد أنعم الله عليك؛ فأشكر الله تعالى على هذه الهدایة. وكل ميسير بتسبيحه إلى ما سبق من علم الله تعالى وتقديره، من شقي أو سعيد، { كل ميسير لما خلق له }؛ ففي الحديث لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: { ما منكم أحد إلا وقد كتب له علم مقدر من الجنة أو النار قالوا: أفل نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسير لما خلق له قال تعالى: { فَامَّا مَنْ أَعْطَى وَآتَى وَمَنْ فَسَيَسِرُ لِلْيُسْرَى وَمَمَا مَنْ بَخْلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَيَسِرُ لِلْعُسْرَى } } فأخبر بأنه يسر لهؤلاء ويسير لهؤلاء، يجعل منهم عمل، هؤلاء هذا صدق بالحسنى، ذكر الله أنه أعطى واتقى وصدق بالحسنى، وذكر أن الآخر بخل واستغنى وكذب؛ فنسب إليه هذه الأفعال ثم ذكر أن هذا يسره لليسرى وهذا يسره للعسرى: { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } . تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد: رد على المعتزلة الذين يقولون: إن كفر الكفار ليس بإرادة الله، إن الله ما أراد أنه يعصى ولكن الكفار هم الذين أرادوا، فغلبت إرادةهم إرادة الله، وغلبت مشيئةهم مشيئة الله، الله تعالى يقول، يقول تعالى: { إِنْ تَسْأَلُنَّ رَبَّكُمْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا حَاصِعِينَ } إذا شاء الله تعالى هداهم جميعاً. لا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يكون لأحد غنى عنه، لا يستغني أحد عن فضله ولا عن عطائه وتوفيقه والذين استغناوا عن الله تعالى فإنه وكلهم: وكلهم إلى أنفسهم. أو يكون خالق لشيء إلا هو: الله خالق العباد، وخلق حركاتهم، ولو شاء ما تحرك منهم عرق، فحركاتهم مخلوقة لله تعالى، ولكنه سبحانه أعطاهم قدرة يباشرون بها الأعمال، ليس هناك خالق إلا هو. رب العباد ورب أعمالهم أي: مالكهم ومالك أعمالهم، والمقدر لحركاتهم ولآجالهم، فهو سبحانه خالق كل شيء، ومالك كل شيء، المقدر لحركاتهم يعني: طاعاتهم ومعاصيهم.